مجلة دراسات معاصرة؛ دورية دولية نصف سنوية محكّمة تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر

تاريخ الإرسال: 17 جانفي 2018 تاريخ القبول: 18 جوان 2018

دور المتون العلمية في تعليمية اللغة العربية
متن "الدر المكنون في الثلاثة فنون" للأخضري أنموذجاً

د. حبيب بوزوادة
جامعة معسكر
الجزائر
habibbouzouada@gmail.com

الملخص:
تعتبر المتون العلمية من الوسائل البيداغوجية التي ابتكرها أسلافنا، بهدف تسهيل العلوم والمعارف، للطلاب، مهما اختلفت مستوياتهم، من أكثر العلماء الذين اعتنوا بهذا النوع من الكتابة عبد الرحمن الأخضريّ، الذي يعتبر من فرسان هذا النهج التعليمي، وهو ما يعرضه هذا المقال الذي يعرّف بمنهج الأخضريّ وأسلوبه، كما أقدّم فيه قراءة نقدية لكتابة المتون، فأبين إيجابياتها وسلبياتها، بكلّ موضوعية وتجرّد.
الكلمات المفتاحية: المتون؛ الأخضري؛ التعليمية؛ اللغة العربية؛ البيداغوجيا

Abstract:
The scientific motun is a pedagogical tool invented by our predecessors, in order to facilitate the science and knowledge of the students, regardless of their different levels, from the most scientists who took care of this type of writing Abdul Rahman al-Akhdari, who is one of the knights of this educational approach, Which is presented by this article, which is known as the method of the green and its style, as well as a critical reading of the writing Almotun, Vbbin positive and negative, objectively and impartially.
***Keywords**: Motun, Al-Akhdari; Didactics; Arabic Language; Pedagogy.*

تقديم:

يعتبر عبد الرحمن الأخضري (983هـ) واحدًا من أعظم العلماء الذين أنجبتهم الجزائر، فهو موسوعة علمية فذّة، لا نظير له في بابه، فقد رُزق علماً واسعاً، وقدرة عجيبة على صيغة مختلف العلوم والفنون في منظوماتٍ، ما تزال إلى اليوم مصدراً مهمًّا في تعلّم العلم الشرعية، واللغوية، وغيرها، فقد كتب منظومة السلم المرونق في علم المنطق، والدرّة البيضاء في علم الحساب، ومنظومة أخرى في علم الفلك، وله في البلاغة الدرّ المكنون في الثلاثة فنون، الذي تولّى شرحه بنفسه.

وسأحاول في مداخلتي –بتوفيق الله وعونه- أن أتحدّث عن الدر المكنون، من الجانب التعليمي البيداغوجي، من أجل الوقوف على المرتكزات المنهجية التي ضبط بها الناظم –رحمه الله- هذا المتن الفريد، وتحليلها اعتماداً على المنهج اللساني، مع الإفادة من منجزات التعليميات الحديثة (Didactique Moderne)، وفق الخطّة الأولية التالية:

المطلب الأول: عبد الرحمن الأخضري وفن كتابة المنظومات

عبد الرّحمن الأخضريّ من أعلام الجزائر خلال عهد العثماني، وُلد في بلدة بنطيوس بـ(بسكرة) سنة 920هـ، خلافاً لما ورد في كتابات عدد من المؤرّخين من أنه ولد سنة 918هـ، كالزركلي، ورضا كحالة، وعادل نويهض[1]، ويتأكّد تاريخ مولده الذي المشار إليه بالعودة إلى منظومته "السلم المرونق في علم المنطق" التي يشير في خاتمتها إلى تاريخ نظمها، وإلى عمره في ذلك التاريخ:

وَلِيَنِي إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ سَنَهْ ***مَعْذِرَةٌ مَقْبُولَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ
لا سِيَمَا فِي عَاشِرِ القُرُونِ*ذي الجَهْلِ والفَسَادِ والفُتُونِ**
وكَانَ فِي أوائلِ المُحَرَّمِ*تَأْلِيْفُ هذا الرَّجَزِ المُنَظَّمِ**
مِنْ سَنَةِ إِحْدى وَأَرْبَعِيْنَ*مِنْ بَعْدِ تِسْعَةٍ مِنَ المِئِيْنَ**

"ومن هنا ندرك أنّ الأخضريّ ألّف السُلّم المرونق في المنطق سنة 941، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، الشيء الذي يؤكّد لنا أنّ ولادته كانت سنة 920هـ على أصحّ الرّوايات المذكورة"[2].

والأخضريّ من أسرة علمية عريقة، فجدّه **محمد بن عامر** كان فقيهاً، وكان أبوه **محمد الصغيّر** (بتضعيف الياء المفتوحة) من علماء عصره في الفقه والنحو والتصوّف، له شرحٌ على ألفيّة ابن معطٍ الزواويّ (628هـ)، وعمّه كان من أشهر علماء طولقة، واسمه إبراهيم بن محمد بن عامر الأخضريّ، توفيّ سنة (879هـ)[3].

وقد كانت وفاة عبد الرّحمن الأخضريّ سنة 983هـ، كما نصّ على ذلك المهدي البوعبدلي في مجلة الأصالة، ودفن في مسقط رأسه بنطيوس[4]، بعد حياة علمية ودينية حافلة، أهّلته لأن يكون واحداً من الشخصيات العلمية المهمّة في العالم الإسلامي.

وبنظرة عجلى على الرّصيد الببليوغرافي للأخضريّ نلمس حرصاً كبيراً منه –رحمه الله-على الكتابة النظمية، فهو بحقّ فارس الكتابة النظمية في الجزائر، وفي المغرب الإسلامي، ومنظوماته في جملتها ممّا يدرّس في أكبر المعاهد والمدارس التي تعنى بالعلوم الشرعية في العالم الإسلامي، خصوصاً في المنطقة المغاربية، وفي إفريقيا جنوب الصحراء، ولقد اهتمّ المؤرخون بها فأحصوها وذكروها في مدوّناتهم، وفي دراسته عن الأخضري ذكر الباحث بقدار الطاهر عددا مهمًّا من هذه المؤلفات مع مظانها، وهي هذه[5]:

1-الجوهر المكنون في الثلاثة فنون:

وهي منظومة في علوم البلاغة الثلاثة، المعاني والبيان والبديع، تبلغ أبياتها مائتين وواحد وتسعين بيتاً، طبع المتن مرارًا، وقد تولّى شرحه عدد كبير من العلماء وأئمة البلاغة، من بينهم الناظم نفسه، وشرحه مطبوعٌ.

2-السّراج في الهيئة:

وهو نظمٌ في علم الفلك، على بحر الطّويل، نظمه سنة 939هـ، وله تسع عشرة سنة، ومنه قوله:

وقد جَعَلَ اللهُ الكَوَاكِبَ زِينَةً*تَرُوقُ عُيُونُ النَّاظِرِيْنَ وَتَقْرَعُ**
وَفِيْهَا رُجُومٌ للشَّياطِينِ كُلَّما*أَرَادُوا اسْتِرَاقَ السَّمْعِ كُفُّوا وزُعْزِعُوا**

قام بشرحه سحنون بن عثمان الميدوي الونشريسي-، بعنوان مفيد المحتاج في شرح السّراج، طبع سنة 1314هـ بمصر.

3-الدّرة البيضاء في أحسن الفنون والأشياء:

وهي أرجوزة في علمي الحساب والفرائض، في خمسمائة بيت، فرغ من نظمها سنة 940هـ وله من العمر عشرون سنة، جاء فيها:

سَمَّيْتُهُ بالدُّرةِ البيضاءِ*في أَحْسَنِ الفُنُونِ والأَشْيَاءِ**
قَدِ احْتَوى على ثلاثةِ جُمَلْ*الفِقْهِ والحِسَابِ ثمّ العَمَلْ**

ويقول في آخرها:

وَقَدْ فَرَغْتُ مِنْ جَمِيْعِ النَّظْمِ* بِأَفْضَلِ الشُّهُورِ شَهْرِ الصَّوْمِ**
مِنْ سَنَةٍ لأَرْبَعِيْنَ مُكْمِلَه*مِنْ بَعْدِ تِسْعِمَائَةٍ مُحَصَّلَهْ**
وَإِنْ عَنَى بِهِ عَذُولٌ مُنْتَبِهْ*فَلْيَبْنِيْ عِشْرِيْنَ عُذْرٌ مُتَّجِهْ**

بدأ الناظم بشرحها، غير أنّ المنظومة سُرقت منه، ثمّ أعيدت إليه فشرح القسم الثاني منها، وأتمّ شرحها مفتي قسنطينة عبد اللطيف بن المسبح (980هـ)، كما وضعت عدد من الشروح والحواشي عليها.

4-أزهر المطالب في علم الإسطرلاب في هيئة الأفلاك والكواكب:

وهي أرجوزة نظمها سنة تسعمائة وأربعين، وله من العمر عشرون سنة، قال فيها:

فَهَذِهِ رِسَالَةٌ مُهَذَّبَهْ*مُفِيْدَةٌ وَاجِزَةٌ مُقَرَّبَهْ**
بَاسِطَةٌ للفَنِّ باسْطِرْلابِ*على بِسَاطِ الحَقِّ والصَّوَابِ**
سَمَّيْتُهَا بِأَزْهَرِ المَطَالِبِ*في هَيْئَةِ الأَفْلاكِ والكَوَاكِبِ**

5-شرح السنوسية:

وهو شرحٌ لمتن أمّ البراهين في التوحيد للشيخ أبي عبد الله السنوسي، توجد نسخة مخطوطة عنها في المكتبة الوطنية-الجزئر تحمل رقم 1426.

6-السلّم المرونق في علم المنطق:

وهو أرجوزة نظمها سنة تسعمائة وواحد وأربعين، في عمر الواحد والعشرين، منها قوله:

وَبَعْدُ فَالمَنْطِقُ للجَنَانِ*نِسْبَتُهُ للنَّحْوِ كاللِّسانِ**
فَيَعْصِمُ الأَفْكارَ عَنْ غَيِّ الخَطَا*وَعَنْ دَقِيْقِ الفَهْمِ يَكْشِفُ الغَطَا**
فَهَاكَ مِنْ أُصُولِهِ قَوَاعِدَا*تَجْمَعُ مِنْ فُنُونِهِ فَوَائِدَا**
سَمَّيْتُهُ بالسُّلَّمِ المُرَوْنَقِ*يَرْقَى بِهِ سَمَاءَ عِلْمِ المَنْطِقِ**

وقد حظي متن السلّم بشهرة كبيرة، فشرح مراراً، وطبع عدّة طبعات، أهمّها شرح النّاظم نفسه.

7-منظومة في قواعد الإعراب على كتاب مغني اللبيب:

نظمها على بحر الرّجز، على أبواب كتاب مغني اللبيب لابن هشام المصريّ في علم النحو[6].

8-الدرّة البهيّة في نظم الأجرومية:

وهي نظم لمتن الأجرّومية في النحو، نظمها سنة تسعمائة وواحد وثمانين، في مائة وسبعين بيتاً، قال في مطلعها:

قال الفقير ناظم الأوزان*الأخضَرِيُّ عَابِدُ الرَّحْمَنِ**
مُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللهِ*وَآلِهِ ذَوِي الهُدى والجَاهِ**

9-شرحٌ على ألفية ابن معطٍ:

وهو شرحٌ نادر اطّلع عليه أبو القاسم سعد الله، وأشار إليه.

10-الفريدة الغرّاء:

وهي منظومة في العقيدة، توجد نسخة عنه في مكتبة عبد الرحمن الجيلالي.

11-القدسية:

وهي أرجوزة في آداب السلوك، ونقد بعض البدع التي أحدثها فريق من المتصوفة، أعجب بها الشيخ عبد الكريم الفكون، وأكثر الاستشهاد بها في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية.

12-مختصر في فقه العبادات:

وهو مختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك، تعرّض فيه لمباحث الطّهارة، والصلاة، وختمه بباب السّهو، طبع مرارا.

13-قصائد شعرية:

فقد ترك الأخضريّ عدداً من الأشعار ذات الطّابع الديني، نشرها الباحث عبد الرحمن تيبرماسين في رسالته للماجستير عبد الرحمن الأخضريّ حياته وآثاره، جامعة باتنة، 1991م، قال محمد الطمّار: "وشعر الأخضريّ لا يخاطب وجداناً، بل استخدمه للمعاني العلمية، فنجد فيه الحقيقة تسبق الخيال، والطبع يغلب التصنّع، والجزالة في غير ضعف ولا غرابة"[7].

المطلب الثاني: فن كتابة المنظومات عند الأخضريّ

يعتبر فن صناعة المختصرات والمنظومات رديفاً لحركة التطوير العلمي في التراث العربي، ورافداً لها، فما انفكّ العلماء يعدّون هذه النصوص الضابطة للقواعد العلمية، نظماً ونثراً، ويضعونها في متناول الطّلاب، طلباً للتيسير وتقريب المعارف من المتلقين، **فالمتون العلمية نصوصٌ مركّزة تقوم على اختصار المعرفة في مجال من المجالات، وصياغتها في قالب منثور أو منظوم، ليسهل حفظها، ومدارستها في حلقات العلم**، فهي إحدى الحلول العملية لتطويع المعرفة، وصوغها في شكلٍ يستند إلى حاجات المتعلّم، وضرورات العلم.

وبالعودة إلى تاريخ المعرفة العلمية في التراث العربي، نلمسُ اهتماماً مبكّراً بهذا الفن، فقد افتتح عليّ بن حمزة الكسائي (189هـ) مسيرة النظم بقصيدة تمثّل أوّليات الكتابة النظمية، قبل مرحلة النضج والاكتمال، أوضح فيها أهمية علم النحو، فقال على بحر الرّمل:

إنّما النحوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعْ*وبِهِ في كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَعْ**
فَإِذَا ما أَبْصَرَ النَّحْوَ فتى*مَرَّ في المَنْطِقِ مَرًّا فاتَّسَعْ**
وإِذَا لَمْ يُبْصِرِ النَّحْوَ فَتَى*هَابَ أَنْ يَنْطِقَ جُبْنًا فانْقَطَعْ**
فَتَرَاهُ يَنْصِبُ الرَّفْعَ وَمَا*كَانَ مِنْ خَفْضٍ وَمِنْ نَصْبٍ رَفَعْ**
يَقْرَأُ القُرْآنَ لا يَعْرِفُ مَا*حَرَّفَ الإِعْرَابَ فيه وصَنَعْ**

لكنّ الكتابة النظمية تطوّرت كثيراً في المراحل التالية، فظهرت عدّة منظومات علمية في القراءات والنحو والصّرف والبلاغة والعروض والمنطق والتوحيد وعلم مصطلح الحديث والتاريخ والفقه والمواريث والحساب وغيرها، ولقد مثّلت ألفية يحيى بن معطٍ الزّواوي (628هـ) مرحلة نضج الكتابة النظمية، فهي أوّل نصٍّ منظوم يتناول أبواب النحو والصّرف تبلغ أبياته ألفاً، كُتبَت على بحريّ السريع والرّجز، ممّا ألْهَمَ محمد بن مالك الأندلسي (672هـ)، ليكتب ألفيته الشّهيرة في الموضوع نفسه على بحر الرّجز، فقال في مطلعها مشيراً إلى سلفه ابن معط:

قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ بْنُ مَالِكٍ*أَحْمَدُ رَبِّي اللهَ خَيْرَ مَالِكِ**
مُصَلِّياً عَلَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى*وَآلِهِ المُسْتَكْمِلِيْنَ الشَّرَفَا**
وَأَسْتَعِيْنُ اللهَ فِيْ أَلْفِيَّهْ*مَقَاصِدُ النَّحْوِ بِهَا مَحْوِيَّهْ**
تُقَرِّبُ الأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزٍ*وَتَبْسِطُ البَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَزِ**
وَتَقْتَضِيْ رِضًا بِغَيْرِ سُخْطِ*فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِ**
وَهْوَ بِسَبْقٍ حَائِزٌ تَفْضِيْلا*مُسْتَوْجِبٌ ثَنَائِيَ الجَمِيْلا**
وَاللهُ يَقْضِيْ هِبَاتٍ وَافِرَهْ*لِيْ وَلَهُ فِي الدَّرَجَاتِ الآخِرَهْ**

وما تزال المنظومات العلمية تحظى باهتمام الشرّاح والدارسين وطلاب العلم، إلى غاية الآن، خصوصاً المنظومات الشهيرة على غرار ألفية ابن مالك في النحو، والرحبية في المواريث، والشاطبية في القراءات، والجوهرة في التوحيد، والبيقونية في مصطلح الحديث، والسلّم في المنطق، وغيرها، إلى جانب العديد من المتون النثرية، التي تتضمّن صياغة المعرفة العلمية المتخصّصة في نصوص مكثّفة، موجّهة أساساً إلى المتعلّمين ليتمكّنوا من التعرّف على الفن الذي وضع لأجله المتن.

وعلى الرّغم من تمتّع المتون المنظومة بمزايا تفضيلية تجعلها مقدّمة على غيرها، إلاّ أنّ المتون المنثورة استطاعت أن تقتطع لنفسها مساحة لا بأس بها على خريطة المعرفة العربية، فما تزال المصنّفات المنثورة لابن هشام كقطر الندى، وشذور الذهب، والإعراب عن قواعد الإعراب تحتلّ مكانة مهمّة لدى طلاب النحو ودارسي اللغة، أمّا متن الأجرومية في النحو فلا يتفوّق عليه في الأهمية سوى ألفية ابن مالك، كما تحتل مختصرات أبي

عبد الله السنوسي الصّدارة بين مصنّفات العقائد في البلاد المغاربية، وخصوصاً عقيدته الصغرى المسمّاة أمّ البراهين، وفي مجال الفقه يعتبر مصنّف خليل بن إسحاق المالكي (767هـ) رأس المدونات الفقهية في بلاد المغرب العربي، بل إنّه يتفوّق على موطأ مالك نفسه في المدارسة والشرح والاهتمام، لتأتي في المرتبة الثانية رسالة ابن أبي زيد القيرواني (386هـ).

المقاربة التراثية للمتون العلمية:

مثلما أسهمت حركة التأليف في الثقافة العربية في وضع قواعد ضابطة للمعرفة العلمية المتخصصة من خلال المتون، فإنّها أنتجت حركة تأليفية على أعتابها، متّخذة عدّة مقاربات:

المتن الشرح الحاشية التقرير

1-**المتن:**

وهو النصّ المركزي الذي يكتب ابتداء، لتلخيص المعرفة ضمن فن من الفنون، ويكون منظوماً أو منثوراً كما تقدّم.

2-**الشرح:**

وهو نصٌّ مصاحبٌ للمتن، "ينهض على شرح الألفاظ التي قد تبدو غريبة للمتعلّمين، في تخمين الشرّاح، كما تحاول أن تثير من حول النص المقروء، أو المدروس بعض الأسئلة التي يُتوخى من إثارتها تفتيقُ الذكاء، وإيقاظُ القلق المعرفي، وتنميته وتربيته لدى المتعلّمين"[8]، ويقوم بهذه الوظيفة علماء معاصرون لمؤلف المتن، أو متأخرون عنه، أو يقوم به كاتب المتن نفسه، وتختلف الشروح منهجياً من عالمٍ لآخر:

■ فهناك من يتوقّف عند الفقرات والجمل، مركّزاً على المصطلحات ذات الحمولة المعرفية، كما فعل ابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك، أو ابن الناظم في شرح منظومة والده، أو ابن هشام في شرح قطر الندى وبل الصدى وغيرها.

■ ومنهم من يعتمد طريقة الشرح المزجي؛ بأنْ يدغم الشرح في المتن، ولا يفرّق بينهما في الصياغة والتركيب إلاّ بوضع القوسين لتمييز المتن عن الشرح، أو باستخدام اللون الأحمر في كتابة المتن.

3-**الحاشية:**

هي متأخّرةٌ زمنياً عن الشرح، ولا تكون على المتن، ولكنها شرحٌ للشرح، فالمحشي يستدرك ما فات الشارح، ويوضّح بعض مبهماته، ولذلك تكون الحواشي مختصرة وأقلّ حجماً بالمقارنة مع الشروح، وموقعها في الكتب أسفل الشروح، أو على يمينها ويسارها، أو تحيط بالشرح من جميع جوانب الورقة.

4-**التقرير:**

وهي الملاحظات التي يدونها بعض العلماء المتأخرين على حواشي غيرهم، مثل: تقريرات الرافعي على شرح ابن عابدين

نظم المنثور:

فالعديد من المتون المنثورة ذائعة الصّيت التي استهوت العلماء وطلاب المعرفة، جرى نظمها تسهيلاً للحفظ، على غرار متن الأجرومية، الذي نظمه العمريطي (890هـ). فنظم قول ابن آجروم "**اَلْإِعْرَابُ هُوَ تغيير أَوَاخِرِ اَلْكَلِمِ لِاخْتِلَافِ اَلْعَوَامِلِ اَلدَّاخِلَةِ عَلَيْهَا لَفْظًا أَوْ تَقْدِيرًا. وَأَقْسَامُهُ أَرْبَعَةٌ رَفْعٌ، وَنَصْبٌ، وَخَفْضٌ، وَجَزْمٌ, فَلِلْأَسْمَاءِ مِنْ ذَلِكَ اَلرَّفْعُ، وَالنَّصْبُ، وَالْخَفْضُ، وَلَا جَزْمَ فِيهَا، وَلِلْأَفْعَالِ مِنْ ذَلِكَ اَلرَّفْعُ، وَالنَّصْبُ، وَالْجَزْمُ، وَلَا خَفْضَ فيها**" بقوله:

إِعْرَابُهُمْ تَغْيِيرُ آخِرِ الْكَلِمْ ...تَقْدِيراً أو لَفْظاً لِعَامِلٍ عُلِمْ
أَقْسَامُهُ أَرْبَعَةٌ فَلْتُعْتَبَرْ ...رَفْعٌ وَنَصْبٌ وَكَذَا جَزْمٌ وَجَرْ
وَالكُلُّ غَيْرِ الجَزمِ فِي الأَسمَا يَقَعْ ...وَكُلُّهَا فِي الْفِعْلِ وَالْخَفْضُ امْتَنَعْ

ونظم العراقي لمقدمة ابن الصلاح (643هـ) في علم الحديث، كما نظم خليفة بن حسن القماري الجزائريّ (1207هـ) مختصر خليل في تسعة آلاف وثمانمائة وسبعة عشر بيتاً (9817)، سمّاه جواهر الإكليل نظم مختصر الشيخ خليل.

الجانب الإيقاعي:

ليس للمنظومات العلمية بحرٌ عروضيٌّ خاصٌّ يجب الالتزام به، فالنّاظم له حرّية اختيار البحر المناسب، فقد كتب أبو مدين مدين منظومة في التصوّف وأخلاق السّالكين، على بحر البسيط فقال[9]:

ما لذة العيش إلاّ صحبة الفقرا*هم السلاطين والسادات والأمرا**
ولازم الصّمت إلاّ إنْ سُئلتَ فقل*لا علم عندي وكن بالجهل مستترا**
ولا تر العيب إلا فيك معتقِدَا*عيبًا بدا بيّناً لكنّه استترا**
وحُطّ رأسَك واستغفر بلا سببٍ*وقِ على قدم الإنصاف معتذراً**

غير أنّ بحر الرّجز يحتل موقع الصدارة في الكتابة النظمية، نظراً لما يتيحه من تغيّرات على الجانب الإيقاعي، فهو يتّكئ على تفعيلة واحدة تتكرّر ست مرات في البيت الواحد، لكنها كثيرة الزحافات والعلل، يقول مصطفى حركات: "تأخذ تفعيلة الرّجز أحد الأشكال؛ مُسْتَفْعِلُنْ، مُفَاعِلُنْ، مُفْتَعِلُنْ، فَعِلَتُنْ، وذلك بورودها سالمة أو بعد حذف الثاني أو الرّابع أو الاثنين"[10]، وكثرة التغيّرات جعلت الشعراء المطبوعين ينفرون من هذا البحر، لتأثيره على التلقي الموسيقي، فالأذن تستثقل التغيرات الإيقاعية المتوالية، غير أنّ هذه الخاصية -التي لا توجد في غير الرّجز- تحوّلت إلى مزيّة بالنسبة للنّظامين، الذين يعتبرونه البحر المفضّل، والأقدر على استيعاب اللغة العلمية.

فإذا كان التجانس الموسيقي مطلب اللغة الشعرية، فإنّه لا يحتل هذه الأهمية في الكتابة النظمية، إذ لا يعدو أن يكون عنصراً مساعداً للغاية الأهم، وهي حصر القواعد وضبطها في قالب موزون.

وضمن هذه الغاية تتعدّد حروف الرويّ في المنظومة الواحدة، قال ابن أبي شنب: "وقد كثر استعمال كلّ بيتٍ مصرّعاً مقفّى، لا سيما في نظم القواعد والقيود"[11]، فتعدّد حروف الرويّ يتيح للناظم حرية أكبر في الصناعة المتنية، كقول المقّري في منظومته إضاءة الدّجنة[12]:

يقول أحمدُ الفقيرُ المقّري* المغربيّ المالكيّ الأشعريّ**
الحمد لله الذي توحيدُه*أجلُّ ما اعتنى به عبيدُهُ**
العالمُ الحيُّ القديمُ الباقي*القادرُ الغنيُّ بالإطلاق**

الكتابة المتنية عند الأخضري:

اشتهر العلاّمة عبد الرحمن الأخضريّ بالعناية بالمتون العلمية، فكتب عددًا من المختصرات المنظومة والمنثورة، التي تعكس تمكّناً علمياً ومنهجياً من المعارف التي ألّف فيها، كما تدلّ على اقتدارٍ لغويّ في صياغة المعرفة، ممّا أهّله ليكون شيخ صناعة المتون العلمية في القرن العاشر، وجعل كتاباته تقاوم الزمن وتفرض نفسها على البرامج والمقرّرات التي يتدارسها طلاّب العلم في العصور التالية، هذا بالإضافة إلى تنوّعٍ في أشكال الصياغة المعرفية، فقد كتب مؤلّفاً وشارحا في مختلف فنون عصره، وبمختلف أدوات الصياغة المعروفة آنئذ، فنجد في مكتبة الأخضريّ اثنا عشر تأليفاً ذا صلة بالمتون العلمية، على النحو الآتي:

1-المتون المنثورة:

لم يترك الأخضريّ متونًا منثورة سوى "مختصر في فقه العبادات"، معروف باسم مختصر الأخضريّ، وهي نص منثور يتضمّن أحكام الطّهارة والصلاة، بأسلوب مبسّطٍ خال من الشواهد ومن الأمثلة، يقول مثلاً في فصل فرائض الصّلاة: "فرائض الصلاة نيّةُ الصلاة المعيّنة، وتكبيرة الإحرام، والقيام لها، والفاتحة، والقيام لها، والرّكوع، والرّفع منه، والسّجود على الجبهة، والرفع منه، والاعتدال، والطّمأنينة، والترتيب بين فرائضها، والسلام، وجلوسه الذي يُقارنه"[13]، فيأتي بالقاعدة الفقهية مختصرة مجرّدة من أيّ تفصيل، فلا يذكر دليلا، ولا يضرب مثالاً.

2-المتون المنظومة:

تمثّل أغلبية التراث العلمي الذي تركه الأخضريّ، فقد ألّف عددًا من المنظومات العلمية أهمّها:

- في البلاغة: الجوهر المكنون في الثلاثة فنون.
- في المنطق: السلم المرونق في علم المنطق.
- في الحساب والفرائض: الدرة البيضاء في أحسن الفنون والأشياء.
- في علم الفلك: السراج في الهيئة.
- في التصوّف: القدسية.
- في علم الإسطرلاب: أزهر المطالب في هيئة الأفلاك والكواكب

ولمنظومات الأخضريّ رواج كبير في بلاد المغرب، وغيرها من بلاد الإسلام، نظراً لما تمتاز به من الأصالة في الطّرح، وسهولة في العرض، وشمول في التناول.

3-نظم المنثور:

يعتبر الأخضريّ المتون العلمية ركيزة أساسية في التكوين العلمي، ولهذا لم يحصر جهوده في كتابة المتون الخاصة به، ولكنه اهتم أيضاً بمختصرات العلماء الآخرين، خصوصاً المختصرات المركزية في البنية الثقافة المغاربية، فاستغل موهبته في الكتابة النظمية، وأعاد صياغة مصنفين رئيسيين في منظومتين وهما:

- الدرّة البهيّة في نظم الأجرومية، في مائة واحد وسبعين بيتاً، نظم فيه متن الأجرومية لمحمد بن آجرّوم الصنهاجي.
- منظومة في قواعد الإعراب على كتاب مغني اللبيب، الذي نظم فيه كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام النحوي.

4-شرح المنظوم:

لقد جمع الأخضريّ إلى كتابة المختصرات وضع الشروح عليها، استكمالاً للمهمّة التي نذر نفسه لها، وهي تطويع المعارف وتبسيطها للطّلاب والناشئة، فشرح بعض المتون التي كتبها بنفسه، كما تولّى شرح متوناً كتبها علماء آخرون.

أ-شروح الأخضري لنفسه: من المتون التي تولّى الأخضريّ كتابتها وشرحها أيضاً:

- الجوهر المكنون في الثلاثة فنون، شرحه تحت اسم "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون"، حققه الأستاذ بقدار طاهر، وطبع سنة 2015، ضمن فعاليات قسنطينة عاصمة الثقافة العربية.
- شرح السلّم المرونق في علم المنطق، طبع وحقّق مراراً منها طبعة دار ابن حزم البيروتية سنة 1427هـ-2006م
- شرح الدّرة البيضاء في أحسن الفنون والأشياء، وهي منظومة في علمي الحساب والفرائض، شرح الأخضريّ القسم الثاني منها، ولم يتمّها.

ب-شروح الأخضري لغيره: لقد خلّف الأخضري شرحين على اثنين من أهم المتون المتداولة في عصره، وهما:

■ شرح السنوسية، وهي رسالة "أم البراهين" في علم التوحيد، التي تعتبر من أشهر المختصرات في علم العقيدة كما قرّرها أبو الحسن الأشعريّ، وكاتبها هو أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني (895هـ)، والشرح ما يزال مخطوطاً كما صرّح بذلك بقدار الطاهر في دراسته عن الجوهر المكنون.

■ شرحٌ على ألفية ابن معطٍ، وهو شرحٌ مفقودٌ، لا نعرف عنه أكثر ممّا ذكر عنه أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي.

البعد التعليمي للمتون العلمية:

إنّ نشاط حركة التأليف في ثقافة ما دليل صحة تلك الثقافة، ومؤشّرٌ إيجابي على مدى حيويتها، وهو ما يمكن أن نلمسه بوضوح في الببليوغرافيا العربية القديمة، التي تتسم بالتنوّع في الطرح، والغزارة في الإنجاز، تعميقاً للمعرفة، وصناعة للفكرة، وشقًّا لمسارات جديدة في الوعي، وضمن هذا المسعى ظهرت المتون العلمية استجابة لحاجات بيداغوجية وتعليمية، كيما تكون وسيطاً بيداغوجيا بين المتعلّم والمادة العلمية، وهو ما يدعو بإلحاح إلى التركيز على الوظيفة التعليمية (Fonction Didactique) في المتون العلمية.

إنّ المتون العلمية بمثابة الوسائل البيداغوجية اليوم، فهي كتب مدرسية بالمعنى المعاصر، ولهذا فإنّها تختلف عن الكتب العامة، من حيث مراعاة بعض الشروط المنهجية والتداولية التي تسمح بالتلقي الجيد للمعرفة، نظراً لأنّها موجّهة للمتعلمين المبتدئين، أو متوسّطي المعرفة، أمّا العلماء الذين جاوزوا مرحلة الطلب فإنّهم في العادة لا يحتاجون إلى المتون العلمية إلاّ لتأدية مهامهم التدريسية، أو لاستذكار قاعدة من محفوظهم.

في هذا الشأن يمكننا الحديث عن الخصائص التعليمية الآتية:

أ-الخاصية الذرائعية:

يتذرّع مصنّفو المتون العلمية بحاجة الطّلاب إلى نصوص تضبط القواعد العامة للتخصصات المعرفية، فيشيرون أحياناً في مقدّمات مصنّفاتهم إلى هذه الحاجة، التي قد تكون طلباً ملحّاً ومتكرّراً من المتعلّمين، قال أبو عبد الله الملالي التلمساني: "فقد سألني بعض المحبين، أشرق الله قلبي وقلبه بنور اليقين، وجعلني وإياه من العلماء العاملين والمخلصين، أن أضع لهم شرحاً مختصراً مفيداً، يستعين به هو وغيره من المبتدئين على فهم عقيدة الشيخ الإمام [أبي عبد الله السنوسي] فأجبته إلى ذلك، قاصداً نفع نفسي، ولمن شاء الله من أبناء جنسي"[14]

أمّا الأخضريّ فيصرّح بأنّه يكتب نزولاً عند رغبات المتعلمين، واستجابة لطلباتهم، كما في الجوهر المكنون[15]:

وقد دعا بعضٌ مِنَ الطُّلابِ*لِرَجْزٍ يَهْدِي إلى الصَّوابِ**
فَجِئْتُهُ بِرَجْزٍ مُفِيْدٍ*مُهَذَّبٍ مُنَقَّحٍ سَدِيْدِ**

فالتركيز على حاجة المتعلّمين يجسّد الجانب الذرائعي في العملية التعليمية، تأكيداً من المصنّفين على الوظيفة النفعية للمتن العلمي، الذي يعتبر استجابة لشغف المتعلّمين وإرواءً لظمئهم المعرفي، وهو ما يوفّر أحد أهم شرائط نجاح العملية التعليمية، ممثلاً في الدافعية (Motivation)، التي يعرّفها أهل الاختصاص بالقول: "إنها تعبيرٌ عن اهتمام المتعلّمين تجاه النشاطات التعلُّمية-التعليمية، فهي بهذا المعنى؛ تهيُّؤٌ لرغبةٍ في التعليم، ونوعٌ من الفضولِ للاطّلاعِ والإقبال عليها"[16]، فهي كفيلة بتنشيط الرغبة الذاتية للمتعلّمين بما يجعل النص المتني وظيفياً.

وقد توضع المتون سدًّا لحاجات المدرّسين إلى مقرّر مدرسي يجمع أمهات المسائل، مثلما يعبّر عن ذلك ابن أبي زيد القيرواني (386هـ) في مقدّمة رسالة بالقول: "فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الدّيانة.. لِمَا رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلّمهم حروف القرآن"[17]، وهذه المقارنة بين تدريس المتون الفقهية وتدريس القرآن الكريم دليلٌ واضح على مكانة المختصرات العلمية، في المنظومة التعليمية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري.

ونلمس الاستجابة للمتلقي في شروح المتون أيضاً، فالمتعلّمون غالباً ما يطلبون من أهل العلم شرح المتون وتبسيطها لهم، في حلقات الدّرس، أو في كتب مستقلة.

ب-اللمسة التربوية:

إذا كانت الكتب العلمية العامة استجابة لحاجة معرفية يسعى العالم إلى سدّها، من دون الأخذ في الحسبان المستوى العلمي والذهني للمتعلمين، فإنّ المتون العلمية موجّهة لمتلقٍ خاصٍّ، لذلك فإنّها تكتب بعناية فائقة، ليتناسب الخطاب في أسلوبه ومحتواه ومستواه مع قدرات المتعلّم المعرفية والذهنية، فغالباً ما يضع المصنّف نصب عينيه كتاباً أو مجموعة كتب تكون بمثابة المراجع الأساسية للمتن، فالأخضريّ مثلا يكشف في مقدّمة منظومته الجوهر المكنون إلى المصدر المعتمد، وهو تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني (739هـ)، فيقول[18]:

مُلْتَقَطًا مِنْ دُرَرِ التَّلْخِيصِ*جَواهِراً بَدِيْعَةَ التَّلْخِيْصِ**
سَلَكْتُ ما أَبْدَى مِنَ التَّرْتِيْبِ*ومَا أَلَوْتُ الجُهْدَ في التَّهْذِيْبِ**

فإشارة الناظم إلى التلخيص بوصفه مصدراً أساسياً ووحيداً للمنظومة لا يعني مجاراته في جميع تفاصيله، فهو يفضّل المقاربة الانتقائية على الاستقصائية، مكتفياً بدرر التلخيص، قال الدمنهوري: "ومعنى البيت أنّه لم يأخذ جميع مسائل التلخيص، وإنّما أخذ بعضها"[19]، لأنّ الكتابة المتنية تختلف بنويا ووظيفيا عن الكتابة العلمية غير المتنية.

فصناعة المتون ترتكز بالأساس على فكرة التلقي، وضرورة مراعاة حاجات المتعلّمين، بما يغنيهم عن أيّ مصدر آخر في مرحلة التعلّم، وهو ما يلقي بالمسؤولية على المصنّف، الذي عليه أن يقدّم المعرفة في قالب شاملٍ، وبأسلوب يراعي أساسيات "البيداغوجيا"، ممثلةً في أعمار المتلقين، وحاجاتهم المعرفية، لذلك نجد الأخضريّ تصرّف في المحتوى المعرفي لكتاب التلخيص، فقال: "**وَمَا أَلَوْتُ الجُهْدَ فِي التَّهْذِيْبِ**"، أي أنّ إعادة الصيغة شرطٌ أساسيٌّ في الكتابة المتنية، ولا يمكن الاكتفاء بما جاء به الأقدمون، وإلاّ أصبح العملُ المتني عبثاً وتكراراً.

ج-تجريد القواعد:

إنّ المتون العلمية في الأساس قواعد صارمة، تقوم على تصفية العبارة وتخليصها مما لا لزوم له ولا فائدة، فهي تخلو من التفاصيل غير الضرورية، مثال ذلك قول الأخضريّ في باب السّهو من مختصره: "**وسجود السّهو في الصلاة سنة، فللنقصان سجدتان قبل السّلام، بعد تمام التشهّدين، يزيد بعدهما تشهّداً آخر. والزيادةُ سجدتان بعد السّلام يتشهّد بعدهما، ويسلّم تسليمة أخرى، ومن نقص وزاد سجد قبل السّلام**"[20]، فالملاحظ أنّ الكلام في هذا النصّ على قدر معناه، وعلى قدر حاجة المتلقي، مجرّداً من أدلته الشرعية، وخالياً من الأمثلة أو الشواهد، والمناقشات بين آراء الفقهاء والمذاهب، مما لا حاجة إليه في هذا المقام.

أمّا إذا كان المتن منظوماً فربّما احتاج النّاظم إلى ما يقيم الوزن، ويوافق القافية، فعندئذ قد يخرج عن هذه الخاصية، بمثال، أو دعاء، أو غيرهما، كقول الأخضريّ أيضًا في الجوهر المكنون[21]:

تأديةُ المَعْنى بِلَفْظٍ قَدْرِهْ*هي المُسَاوَاةُ كَـ(سِرْ بِذِكْرِهْ)**
وبِأَقَلَّ مِنْهُ إِيْجَازٌ عُلِمْ*وَهْوَ إلى قَصْرٍ وحَذفٍ يَنْقَسِمْ**
كَـ(عَنْ مَجَالِسِ الفُسُوقِ بُعْداً* فلا تُصَاحِبْ فَاسِقًا فَتَرْدَى)**
وَعَكْسُهُ يُعْرَفُ بِالإِطْنَابِ * * * * كَـ(الْزَمْ –رَعاكَ اللهُ- قَرْعَ البَابِ)

فمن الواضح ههنا لجوء النّاظم –على خلاف الأصل- إلى الأمثلة التوضيحية، تنويراً للقارئ، وتقريباً للفائدة، واستجابة لمتطلبات الإيقاع، التي تدفع إلى توظيف بنى إفهامية لتحقيق هذه الغاية.

د-الأسلوب المباشر:

الصناعة المتنية من جملة الصناعة العلمية، فعلاقتها باللغة علاقة الغاية بالوسيلة، لذلك فإنّها نوعٌ من الكتابة يجنح نحو المباشرة والوضوح، ولا يلتفت إلى اللغة الأدبية ولا تعنيه إلاّ بالقدر الذي يخدم الهدف الأساس، لإنتاج خطاب علمي واضح ومباشر، يهدف إلى تقريب المعرفة العلمية، مثلما يقول الأخضريّ في مواضع التأنّق في الكلام[22]:

وَيَنْبَغِي لِصَاحِبِ الكَلامِ*تَأَنُّقٌ في البِدْءِ وَالخِتَامِ**
بِمَطْلَعٍ سَهْلٍ وَحُسْنِ الفَالِ* وَسَبْكٍ أَوْ بَرَاعَةِ اسْتِهْلالِ**
وَالحُسْنُ في تَخَلُّصٍ أَوِ اقْتِضَابِ*وفي الذي يَدْعُونَهُ حُسْنَ الخِطَابِ**

فلا مجال في الكتابة المتنية للغة الشعرية، بما تعنيه من إيحاءات، ورموز، ومجازات، لأنّ من شأن اللغة الأدبية غير المباشرة أن تفضي إلى التعمية، وتعويم المعاني، ممّا يعطّل الخطاب المتني عن وظيفته الرئيسة، وهي توصيل المعرفة بأيسر السبل، وأوضح الأساليب.

هـ-توظيف المصطلحات العلمية:

تمثّل المتون العلمية ثروة اصطلاحية، تخدم المعرفة في شتى مجالاتها وفنونها، فهي تحصر المعجم العلمي للفن الذي كتبت لأجله، وتقدّم المفاهيم الأولية لتلك المصطلحات، وهو ما يعني أنّ المستوى المفرداتي في المتون العلمية على قدر من الأهميّة، فلا مجال فيها للاعتباطية، إنّها محصّلة بحث لغوي عميق، يقوم مؤلّفو المتون بصياغته ضمن خطاب لغوي ذي طبيعة تعليمية، ممّا ينتج في النهاية شبكة مصطلحات مؤطّرة ضمن حقول معرفية محدّدة، فالمتون الفقهية تقدّم ذخيرة اصطلاحية فقهية، والمتون النحوية كذلك، وهكذا الشأن في المتون الصرفية والمنطقية وفي العقائد والتوحيد والقراءات وغيرها، كما نلاحظ على سبيل المثال في منظومة الجوهر المكنون للأخضري[23]:

فَنُّ البَيَانِ عِلْمٌ ما بِهِ عُرِفْ*تَأْدِيَةُ المَعْنَى بِطُرْقٍ تَخْتَلِفْ**
وُضُوحُهَا، وَأَحْصُرُهُ في الثَّلاثَةِ* تَشْبِيْهٍ أَوْ مَجَازٍ أَوْ كِنَايَةِ**

فالبيتان يتضمنان أربعة مصطلحات علمية، وهي البيان والتشبيه والمجاز والكناية، تعبّر عن مختلف أشكال العلاقات بين الدوال ومدلولاتها، ما يقدّم في عجالة إلى المتعلّم الكلمات المفتاحية في مجال علم البيان، ثمّ يقوم النّاظم بشرح تلك المصطلحات في الأبيات الموالية، وهو ما يسمح للمتعلّم بتلقي قاعدة علمية متينة

عمادها شبكات من المصطلحات العلمية، التي تمثّل الخارطة المعرفية للفن الذي يتمحور حوله النص المتني.

و-الكفاية العلمية:

وأعني بها أنّ الطالب بإمكانه الاكتفاء بدراسة المتن الواحد ليحصّل الضروري من العلم، فتكفيه ألفية ابن مالك لتكوين القاعدة الأساسية في علم النحو، والبيقونية في علم الحديث، والرحبية في المواريث، إلى غير ذلك من المتون، فالمتن العلمي وثيقة موجّهة للطلاب لتؤطّر معرفتهم، وتغنيهم عن المراجع الكثيرة التي قد تشتت أذهانهم وتشوّش أفكارهم.

ولهذا ظل العلماء ينصحون الطّلاب بحفظ متن من كلّ فنٍّ ليقينهم بأنّ كلّ متن هو بابٌ نحو حيازة المعرفة، وتحصيل الملكة العلمية، فيقولون: **"من حفظ المتون حاز الفنون"**. وأهمية بعض المتون المشهورة في التراث العربي، كالتي ذكرناها آنفاً، تتأتّى من احترامها للأدوات العلمية والمنهجية والبيداغوجية، لولا ذاك ما اشتهرت، ولا كُتِب لها القبول.

في نقد الخطاب المتني:

على الرّغم من مركزية الخطاب المتني في الثقافة العربية، واعتراف جمهور كبير من العلماء بما قدّمته المتون للمعرفة العلمية، إلاّ أن هناك وجهة نظر أخرى ترى بأن المتون لم تقدم الإضافة المرجوة منها، فهي ابتداءً وليدة عصرٍ ضعفت فيه الهمم، وقصرت عن النظر في أمهات الكتب، يقول البشير الإبراهيمي: "نشأت عوامل الانحطاط في العلوم الإسلامية، وكان من أظهر مظاهرها جفاف القرائح، وجدب الأفكار، وضعف القوى الحافظة، وانحطّت طرائق التلقين تبعاً لذلك، وانحصرت في الطريقة الشائعة إلى اليوم، وهي التزام كتاب تتعدّد نسخه بتعدّد المتلقين له، يحلّ الشيخ عباراته، ويشرح معانيه، وانحطّت وظيفة السّامعين من الكتابة والتقييد إلى الاستماع المجرّد"[24]، فأصحاب هذا الرأي يرون أنّ العلم يؤخذ من مظانه الرئيسية، لا من المختصرات والمتون التي نشأت خلال مرحلة تاريخية ضعفت فيها الهمم، وفرضت أسلوبها على العصور التالية، يقول بن الحنفية العابدين: "ولئن كان ظهور المختصرات ضرباً من خدمة الفقه، إلاّ أنّه شاع في عصرٍ غلب فيه حفظ الفروع، وضعف حبل السّند العلمي، وترافقت قوة الحفظ هذه في الغالب مع ضعف التصرّف في العلم والتعليم، لقصور الملكات"[25].

فكثيرٌ من المختصرات العلمية تجنح نحو العبارة المكثّفة المركّزة، التي تحول دون الفهم والإدراك، فتحتاج إلى شرح، وربما احتاج الشرح إلى شرح أيضا!! مثلما نلمس ذلك في مختصر-خليل بن إسحاق المالكي (767هـ)، الذي ننقل منه على سبيل المثال قوله: "سُنّ لِسهوٍ وإن تكرّر بنقصِ سنةٍ مؤكّدةٍ أو مع زيادةٍ سجدتان قبل سلامه، وبالجامع في الجمعة، وأعاد تشهّده، كترك جهرٍ وسورةٍ بفرضٍ وتشهدين، وإلاّ فبعده، كمتمٍّ لشكٍّ، ومقتصرٍ على شفعٍ شكّ أهو به أو بوتر، أو تركِ سرٍّ بفرضٍ، أو استنكحه الشكُّ ولَهِيَ عنه، كطولٍ بمحلٍّ لم يشرع به على الأظهر، وإن بعد شهرٍ.."[26]، فالعبارة يكتنفها غموضٌ كبير، يبلغ حدّ الإلغاز، ممّا يجعل المتن ليس في متناول صغار الطلبة، ولا حتى المتوسطين منهم، فمن الضروري أن لا يُقرأ الكتاب إلاّ على يد شيخٍ متمكّن، ييسر عسيره، ويفكّ غموضه. ومن هنا وقع النقد للمختصرات والمتون، فتحصيل المعرفة قد يتأخّر كثيراً بسبب الانشغال بلغة المتن، وأسلوبه المعقّد، وهو ما جعل البشير الإبراهيمي يوجّه نقداً لاذعاً لهذه الطريقة في التعليم، فقال: "وكيف تستحكم ملكة الفقه مثلا لمن يقرأ من مثل مختصر-خليل، على هذه الطريقة يمضي وقته في تحليل عباراته وتراكيبه المعقدة، التي ذهب الاختصار بكثير من أجزائها، وفي بيان التقديم والتأخير في الألفاظ، وربط المعمولات بالعوامل البعيدة، وإرجاع الضمائر المختلفة إلى مراجعها، والطّفرة بالذهن من مذكور إلى مقدّر، وهذا هو كل ما يشغل وقت المعلّم والمتعلّم"[27] بل ربّما أصبح المتن هدفاً مطلوباً لذاته، ونُسي أنّه مجرّدُ وسيلةٍ لتحقيق الملكة العلمية، التي تؤهّل المتعلّم للاستنباط، والمناظرة، والقياس، وغيرها من مقتضيات العلم.

وقد حذّر العلاّمة عبد الرحمن ابن خلدون علماءَ زمانِه من حمل الطّلاب على العناية المبالغ فيها بالمتون، لأنّهم "قصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأرْكبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة"[28]، فبدلاً من انشغال الطالب بتحصيل العلم، ينشغل بتحصيل المتن، وهناك فرقٌ كبيرٌ بين المتن والعلم، فالمتن وسيلة، والعلم غاية، فإذا ما ركّز مؤلّفو المتون على تكثيف العبارة، وانشغل الطلاب وأهل المعرفة بحلّها وشرحها، فإنّ تحصيل الملكة العلمية قد يتأخّر كثيراً، أو لا يحصل أبداً، لأنّه ليس من السّهل على من انشغل بالمتون النظرية المجرّدة من الأدلة ومن الشواهد والتفاصيل، وبعيداً عن مسائل الخلاف بين الأئمة وأهل العلم، أن يتمكّن من تطبيق ما تلقاه، ويمثّل ابن خلدون لهذه الحالة بطلاّب فاس الذين كان الواحد منهم يقضي شطراً مهمّا من حياته في دراسة متن من المتون ثمّ يتخرّج بملكة قاصرة عند المفاوضة والمناظرة والتعليم[29].

ولهذا يطرح أصحاب هذا التوجّه بديلاً تعليمياً آخر، وهو التعلّم من المصادر الأساسية للمعرفة، بدلاً عن المختصرات، التي ربّما كانت سبيلا لامتلاك مفاتيح المعرفة، لكنّها أبداً لن تنتج العالم

المتحرّر، والمثقف المفكّر القادر على الإبداع والعطاء، بعيداً عن الحفظ وترديد المحفوظ.

إنّ صناعة المتون تعتبر واحدة من أعم معالم الثقافة العربية، وهي عنصر مهمّ في صياغة المعرفة العلمية، وتثبيتها في أذهان المعلّمين، والمتعلّمين على حدٍّ سواء، على اعتبار أنّ مهارة الحفظ هي باب المعرفة، وسبيلها المفضّل، ولذلك حظيت المتون العلمية بأهمية كبيرة على امتداد العصور في الحضارة العربية الإسلامية.

أمّا الأصوات التي تسّفه طريقة المتون العلمية، وتدعو إلى إلغائها، على اعتبار أنّها عائق في وجه التحرّر والإبداع الفكري، إلاّ أنّها على وجاهة أفكارها، ودقة ملاحظاتها، ليست صحيحة بإطلاقها، ولكن يمكن الاستفادة من ممّا قدّمه أصحاب هذا الرّأي، لتصويب الوجهة، وتصحيح المسار، ودعم الصناعة المتنية بما يجعلها منتجة مثمرة، متجاوبة من النظريات المعاصرة، في مجال التعليميات والبيداغوجيا.

ومن المسؤوليات الملقاة على عاتق الباحثين والأكاديميين اليوم العودة إلى الموروث المتني الذي خلّفه علماؤنا القدامى، وبالخصوص عبد الرّحمن الأخضري الذي وصفناه بفارس الكتابة النظمية في القرن العاشر، فينبغي على هؤلاء المختصين أن يعيدوا هذا التراث العلمي إلى الواجهة، فهو الذي صِيغَتْ به ثقافتنا، وهو الذي حمل معرفتنا العلمية على مدى القرون المتباعدة.

الهوامش:

1 طاهر بقدار: قراءة في حياة عبد الرحمن الأخضريّ وعصره، مجلة متون، جامعة سعيدة، العدد 11، جوان 2015، ص309.

2 المرجع السّابق ص310.

3 المرجع السّابق ص311.

4 المرجع السّابق ص312.

5 طاهر بقدار: شرح الجوهر المكنون للأخضري (قسم الدّراسة) ص65.

6 قلت: لعلّها هي نفسها المسمّاة "موصل الطّلاب إلى قواعد الإعراب"، التي نسبها إليه بروكلمان في تاريخ الأدب العربي، القسم التاسع (525/14).

7 محمد الطمّار: تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006م، ص336.

8 د.عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة، دار المنتخب العرب، بيروت، 1414هـ-1994م، ط1، ص8.

9 انظر عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث ص107.

10 مصطفى حركات: الشعر الحر، أسسه وقواعده، المكتبة العصرية، بيروت، 1418هـ-1998م، ط1، ص25.

11 محمد ابن أبي شنب: تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب،دار فليتس، الجزائر، (دت) ص62.

12 إضاءة إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السّنة، المكتبة العصرية، بيروت، 1424هـ-2003م، ط1، ص7.

13 عبد الرحمن الأخضري: مختصر في العبادات، تقديم بشير ضيف، دار ابن حزم، بيروت، 1430هـ-2009م، ط1 ص52.

14 أبو عبد الله الملالي: شرح أم البراهين ص51.

15 حلية اللب المصون على الجوهر المكنون، 1994م، ص16

16 عبد القادر لورسي: المرجع في التعليمية، الزاد النفيس والسّند الأنيس في علم التدريس، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 1436هـ، 2015م، ط2، ص258.

17 ابن أبي زيد القيرواني: الرسالة الفقهية، تحقيق الهادي حمّو ومحمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ-1986م، ط1، ص73.

18 حلية اللب المصون على الجوهر المكنون، ص16

19 المرجع السابق ص17.

20 مختصر في العبادات ص61.

21 شرح الجوهر المكنون ص426.

22 المصدر السابق ص667.

23 الأخضري: شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون، تحقيق بقدار طاهر، مكتبة الرّشاد، سيدي بلعباس (الجزائر)، 2015م، ط1ص448.

24 خلاصة تفسير المعوذتين ضمن مجالس التذكير لابن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1402هـ- 1982م، ط1 ص396-397.

25 بن حنفية العابدين: كيف نخدم الفقه المالكي؟ دار الإمام مالك، الجزائر، 1434هـ، 2013م، ط2، ص255.

26 مختصر خليل (فصل في حكم سجود السّهو وما يتعلق به)، تحقيق أحمد جاد، دار البصائر، الجزائر، 1426هـ، 2005م، ص35.

27 خلاصة تفسير المعوذتين ضمن مجالس التذكير لابن باديس ص397.

28 مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، (د ت)، ص394.

29 المصدر السابق ص303.